Albaydha
Albaydha.sa

أمخلوق يدبّر الكون؟

للكاتبة: جمانة بنت طلال محجوب

باحثة دكتوراه بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى.

مقال نقديّ لكتاب:

أنت الكون

الكاتب:
ديباك شوبرا
Deepak Chopra

مُلحد رُوحاني هندوسيّ الأصل، وهو أحد أبرز رموز الفكر الباطنيّ الإلحاديّ الحديث.

ما الذي سبق الانفجار العظيم؟ ما سبب تناسق الكون مع بعضه البعض على هذا النحو المثالي؟ من أين جاء الزمن؟ ممَّ صنع الكون؟ هل هناك تصميم في الكون؟... كيف بدأت الحياة بادئ ذي بدء؟.. إنّ مثل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها إجابة صحيحة إلا من عند الأول -سبحانه- الذي كان ولم يكن شيء، الذي يعلم السر وأخفى، الذي خلق كل شيء وقدره وهدى.. سبحانه وتعالى. الذي بيّنها لنا من خلال الوحي كتابًا وسنةً، وهي الإجابات الحقة الوحيدة، ولا حق غيرها. **قال تعالى:** ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

إنّ النفوس بطبعها محتاجة إلى معرفة هذه الإجابات، لذلك أخبرنا الله تعالى، بغاية الخلق وهي عبادته تعالى، وبأنه كان ولم يكن شيء جل جلاله، وبأنه خلقنا من العدم، وأنه أتقن كل شيء خلقه وأحسنه وأبدعه..

إنّ البحث عن إجابات لمثل هذه الأسئلة من غير المصدر الحق، يجعل الإنسان يتيه ويتخبط، ويزيغ ويضل، بل قد توصله رحلة البحث عن الإجابات من غير الوحي المعصوم، إلى أن يطغى ويقول **كما قال فرعون:** ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، فظنّ فرعون أنه بنظره وبذله لأسباب الكشف والبحث يستطيع أن يقتحم الغيب بجهله فيرى الله تعالى، وزُيّن له سوء عمله بأنه ناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين.

وهذا ما فعله ديباك شوبرا في كتابه أنت الكون، فظن أنه قدّم إجابات لهذه الأسئلة التي سماها ألغازًا وأحاجي، من خلال العلم الحديث، الذي زعم برأيه وجهله، أنها أوصلته إلى نتيجة غائبة، وهي إدراك حقيقة أنك: أنت الكون!! فزين له سوء عمله وهو من أعظم المفسدين.

حاول ديباك في كتابه حشد الكثير من المفاهيم والمصطلحات والنظريات الفيزيائية، كالنظرية النسبية العامة والخاصة، ونظرية الكم، التي زعم أنها تثبت النتيجة التي توصل إليها، وهي: (أنت الكون!) **يقول:** "من دونك لا يمكن لهذا العالم والكون الشاسع الممتد في جميع الاتجاهات أن يكون"[١]، **ويقول:** "نستكشف اليوم واقعنا من خلال العلم، ومن غير الممكن أن يكون هناك واقعان، فإذا كانت نظرية "أنا الكون" صحيحة، فلابد للعلم الحديث من أن يقدم أدلة علمية تدعمها. وهو يفعل ذلك"[٢].

إلا أنه رغم كثرة محاولاته في التزلف العلمي، والتطفل على العلوم الفيزيائية، لم يسلم من التصريح بما وراء ذلك التطفل من معتقدات روحانية، ذات الجذور الهندوسية، حيث علّق قائلًا قبل حديثه عن زعمه بأن العلم يقدم أدلة علمية تثبت صحة نظرية أنا الكون، **يقول:** "إن هذه المعرفة المتعمقة ليست جديدة، ففي الهند القديمة صرح حكماء الفيدا قائلين «آهام براهماسمي» والتي يمكن ترجمتها «أنا الكون» أو «أنا كل شيء» لقد وصلوا إلى هذه المعرفة جراء غوصهم في أعماق إدراكهم الخاص، حيث اهتدوا إلى أعظم الاكتشافات. لقد غيبت الذاكرة أولئك الذين كانت عبقريتهم في ميدان الوعي كعبقرية

[١] أنت الكون لديباك شوبرا صـ ١٧.

[٢] المرجع السابق صـ ١٨.

«آينشتاين» الذي أحدث ثورة في عالم الفيزياء في القرن العشرين"[1]. وهذا تصريح منه بالعقيدة الهندوسية الإلحادية في الوجود والإله.

كذلك **يقول:** "أن هذا الكون هو «كون» تشاركي يعتمد في وجوده على البشر"[2]!! وقد **قال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾ [فاطر: ١٥-١٧]!!

ثم يصرّح بنظرته الإلحادية للكون **فيقول:** "ما سبب تناسق الكون على هذا النحو المثالي؟... لم يكن هناك مدّبر وبالتأكيد لا مخطط وراء الكواليس، إن القصص العلمية لعملية الخلق تستبعد وجود الإله بأي شكل من الأشكال"[3]، **كما يقول:** "إن خلق شيء من العدم هو عملية بشرية وليس حدثًا كونيًا بعيدًا"[4] -سبحان الله وتعالى عما يقول علوًا كبيرًا- وأين هو من **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم يعود في نظرته إلى الكون وإجابته عن حقيقة هذا الكون ووجوده، إلى مصدر هندوسي آخر، وهو شاعر هندوسي وفيلسوف موسيقي، اسمه طاغور، يُنظر إليه من قبل الغرب على أنه تجسيد للتقاليد الروحانية الهندية؛

---

[1] أنت الكون لديباك شوبرا صـ ١٨.

[2] المرجع السابق صـ ١٩.

[3] المرجع السابق صـ ٨٧.

[4] المرجع السابق صـ ٦١.

زاعمًا تناغمه مع العلم، وأنه جاء ليُجلي لآينشتاين صحة نظريته وتخبطه تجاهها، **يقول:** دار بينهما الحوار التالي:

"طرح «أينشتاين» السؤال الأول: «هل تؤمن بكون الإله منفصلا عن العالم؟. كان جواب «طاغور»: ليس بمنفصل، فالذات الإنسانية اللامتناهية تسع الكون. لا يمكن لشيء إلا أن يكون متضمنا في الذات الإنسانية. إن حقيقة الكون إنما هي حقيقة إنسانية..إنه كون نسبي، ويعتمد في واقعيته على وعينا...." ثم علّق ديباك على هذا الحوار **بقوله:** "إن النقاش ما بين الذهنين الرائعين منسي إلى حد كبير اليوم إلا أنه كان تنبؤيا على نحو مدهش، لأن احتمال وجود كون إنساني، كون يعتمد علينا بوجوده بعينه، يتعاظم في يومنا هذا. إن الاحتمالات الأكثر روعة في كوننا نحن صناع الواقع، لم تعد رائعة بعد الآن. في النهاية، فإن الإيمان أو الإلحاد هما من صنع الإنسان كذلك الأمر"[1].

إن حقيقة قول طاغور هو إنكار الإله، والقول بوحدة الوجود الإلحادية، التي عبر عنها بأن الإله ليس منفصل عن العالم، وأن الذات الإنسانية تسع الكون،... وفلسفها ببعض العبارات والألفاظ الفيزيائية، وهو ذات القول بالوعي الكوني المتولد عن الفلسفات الشرقية من الهندوسية والبوذية وغيرها.

ومثل هذه العبارات هي كفر بالله وتكذيب به، ومنازعة له في ربوبيته سبحانه وتعالى، وليس بعد هذا الكفر كفر. فأين هذه الأقوال من **قوله تعالى:** ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ

[1] أنت الكون لديباك شوبرا صـ ٤٦.

ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: ١١-١٢].

ويلحق قوله أن الكون إنساني، أن الإنسان هو الذي يصنع واقعه من خلال تفكيره ووعيه، **يقول:** "يقف الزمن في صفك لأنك تساهم في خلقه..."[١]، **ويقول:** "الذهن بصفته خالقًا: يقودنا هذا إلى مرحلة جديدة من الرحلة حيث يرى تفكيرك بوضوح تام أنه هو من يصنع واقعك الخاص"[٢]..

ولا شك أنّ القول بخلق القدر والواقع، هو شرك في ربوبية الله وتدبيره وتصرفه سبحانه وتعالى، ومنازعة له في أخص خصائصه. **قال تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، **وقال:** ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

كما جاء بفلسفة الاتحاد الشرقية، التي يزعمون أن الانفصال هو الشقاء، والاتحاد هو السعادة والتحرر والحقيقة، **يقول:** "هل من الممكن رؤية الواقع يومًا على نحو مباشر باعتباره كل دون أي تقسيمات أو انفصال؟ يبدو هذا مطلبًا روحانيًا، والذي كان ليُسمى في العصور السابقة «الاتحاد مع الإله» أو الحقيقة الداخلية المطلقة «أتمان»، وكانت الرغبة في التواصل مع الروح وفي الوقت ذاته الهرب من المعاناة الأرضية، هي الدافع وراء الوصول إلى ما وراء الانفصال،

[١] أنت الكون لديباك شوبرا صـ ١٤٦.

[٢] المرجع السابق صـ ٣٣٣.

أما الآن فقد بات الدافع مختلفًا، إذ يركز على الوعي الأسمى، وتحقيق إمكانات الفرد.."[1] **ويقول:** "ربما تبدو النقطة الأولى «الكون في داخلك» الأكثر إرباكًا، بصفتها إقرارًا تصريحيًا بحقيقة فيزيائية... ولكن حقيقة أن «الكون موجود في داخلك، فيك» تأتي عند نهاية الرحلة، وليست فكرة منعزلة..."[2].

وهذه الفكرة القائمة على معتقد الاتحاد مع الإله أو الكون، وتحقيق الوحدة، وعدم الانفصال بزعمهم، ما هي إلا إلحاد وكفر وشرك وتكذيب **لقوله تعالى:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤] **وقوله تعالى:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **وقوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣] بل ومناقضة للقرآن كله.

رغم أنه ليس بعد هذا الكفر كفر، إلا أنه أنكر الإيمان باليوم الآخر أيضًا في **قوله:** "... إلى أن يُثبت الموت صحة وجود حياة بعده"[3]، وقد **قال الله تعالى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

[1] أنت الكون لديباك شوبرا ص ٣٢١.

[2] المرجع السابق ص ٣٣١.

[3] المرجع السابق ص ١١٧.

كما همّش الدين ووصفه بالخيالات في **قوله:** "إن كل هذه التخمينات، بما فيها الدينية تبقى خيالية..."[1].

وخلاصة أبرز المخالفات العقدية في هذا الكتاب:

١. النظرة الإلحادية في نشأة الكون.
٢. إنكار الإله والقول بوحدة الوجود.
٣. القول بالوعي الكوني الإنساني كما في الفلسفات الشرقية.
٤. الاعتقاد بالاتحاد البوذي، وأن الانفصال من أسباب المعاناة.
٥. الاعتقاد بأن الإنسان يخلق الواقع بتفكيره.
٦. إنكار اليوم الآخر.
٧. وصف الدين بالخيالات وحقيقة قوله تكذيب به.

وختامًا: إن محاولة الإجابة على الأسئلة الكبرى بعيدًا عن المصدر الرباني الذي أنزله الله تعالى، وبيّن فيه الحق للناس كافّة؛ يقود إلى الانحراف والزيغ والضلال، الذي قد يصل إلى ما وصل إليه ديباك في كتابه، من محاولات التلفيق بين الروحانية الفلسفية المتولدة عن الديانات الشرقية، بالعلم التجريبي الفيزيائي والتطفل عليه، الذي أوصله عبثه هذا في نهاية الأمر إلى قوله: أنت الكون! وهو **كقول فرعون:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. بل إن قوله أشر من قول فرعون، حيث جعل الكون كله هو الله -تعالى الله- وهي حقيقة وحدة الوجود، وأن كل

[1] أنت الكون لديباك شوبرا صـ ١١٩.

ما في الوجود هو الله أيًا كان ولو كان حقيرًا -سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا-.

ومن يقرأ مثل هذا الكتاب ولم يكن متسلحًا بالعلم الشرعي المتخصص، أو العلم الفيزيائي المتخصص، سيقع في فخ العلمنة التي مارسها الكاتب، التي توهم القارئ غير المتخصص بأن العلم يثبت هذا الجهل الذي قدمه، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، فإنه لا تعارض بين العلم والنقل، فالذي أنزل الكتاب والذي خلق الكون وأبدعه، وسنّ قوانينه وعلومه، هو العليم الخبير جلّ جلاله.

فالحذر الحذر..

*هذا المقال يعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا يمثل - بالضرورة - رأي الناشر